الإسراف والتوسط

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وبعد ...

قال تعالى: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا".

والتوسط جزء من أجزاء النبوة، خلق من أخلاقها، صفة من صفاتها ...

ت – عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَرْجِسَ الْمُزَنِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [السَّمْتُ الْحَسَنُ وَالتُّؤَدَةُ وَالِاقْتِصَادُ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنْ النُّبُوَّةِ].

لذلك كان من أوصاف النبى صلى الله عليه وسلم: التوسط باختيار أيسر البديلين ...

حم – عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه ما "خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا".

أولاً: الإسراف في التدين (الغلو في الدين):

المؤمن عندما يبدأ فى الاستقامة ويكون عندئذٍ منجرفاً إلى الاجتهاد فى العبادة والأخذ بالشرع أخذاً شديداً، ثم يوفقه الله تعالى إلى التوسط، وهذا التوفيق هو علامة فلاحه، وآية نجاته ...

حم – عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: [ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رِجَالٌ يَجْتَهِدُونَ فِي الْعِبَادَةِ اجْتِهَادًا شَدِيدًا فَقَالَ تِلْكَ ضَرَاوَةُ الْإِسْلَامِ وَشِرَّتُهُ وَلِكُلِّ ضَرَاوَةٍ شِرَّةٌ وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى اقْتِصَادٍ وَسُنَّةٍ فَلِأُمٍّ مَا هُوَ وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى الْمَعَاصِي فَذَلِكَ الْهَالِكُ].

واعمل بهذا الحديث، فإن صالحاً من الناس لم يعمل به فندم أشد الندم ...

م – عن عبد اللَّهِ بن عَمْرِو بن الْعَاصِ قال: [كنت أَصُومُ الدَّهْرَ وَأَقْرَأُ الْقُرْآنَ كلَّ لَيْلَةٍ قال فَإِمَّا ذُكِرْتُ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَإِمَّا أَرْسَلَ إلي فَأَتَيْتُهُ فقال لي أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ الدَّهْرَ وَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ كلَّ لَيْلَةٍ فقلت بلَى يا نَبِيَّ اللَّهِ ولم أُرِدْ بِذَلِكَ إلا الْخَيْرَ قال فإن بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ من كل شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ قلت يا نَبِيَّ اللَّهِ إني أُطِيقُ أَفْضَلَ من ذلك قال فإن لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا قال فَصُمْ صَوْمَ دَاوُدَ نَبِيِّ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فإنه كان أَعْبَدَ الناس قال قلت يا نَبِيَّ اللَّهِ وما صَوْمُ دَاوُدَ قال كان يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ

يوْمًا قال واقْرَأْ القُرْآنَ في كل شهْرٍ قال قلت يا نَبيَّ اللّهِ إني أُطيقُ أفْضَلَ من ذلك قال فاقْرَأْهُ في كل عشْرِينَ قال قلت يا نبِيَّ اللّهِ إني أطِيقُ أَفضَلَ من ذلك قال فَاقرَأْهُ في كل عَشرٍ قال قلت يا نبِيَّ اللّهِ إني أطِيقُ أَفضَلَ من ذلك قال فَاقرَأْهُ في كل سَبعٍ ولا تزِدْ على ذلك فإن لِزَوجِكَ عَلَيكَ حقًّا وَلِزَورِكَ عَلَيكَ حقًّا ولِجَسَدِكَ عَلَيكَ حقًّا قال فَشَدَّدتُ فشُدِّدَ علَيَّ قال وقال لي النبي صلى الله عليه وسلم إنّكَ لا تَدرِي لعَلَّكَ يطُولُ بكَ عُمرٌ قال فَصِرتُ إلى الذي قال لي النبي صلى الله عليه وسلم فلما كَبِرتُ وَدِدتُ أنِّي كنت قَبِلتُ رُخصَةَ نبِيِّ اللّهِ صلى الله عليه وسلم].

والتوسط عند المؤمن نجاة له من الغلو فى الدين ...

ن جه حم – عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره غَدَاةَ رمي جمرة الْعَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ، قال: الْقُطْ لِي حَصًى، فَلَقَطْتُ لَهُ سَبْعَ حَصَيَاتٍ هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ، فَجَعَلَ يَنْفُضُهُنَّ فِي كَفِّهِ، وَيَقُولُ: أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ فَارْمُوا، ثُمَّ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ.

ومن توسط المؤمن أنه لا يعذب نفسه بالعبادة ...

خ م – عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ قال: [كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا وَذَلِكَ فِي رَمَضَانَ فَصَامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَعُفَ ضَعْفًا شَدِيدًا وَكَادَ الْعَطَشُ أَنْ يَقْتُلَهُ، وَجَعَلَتْ نَاقَتُهُ تَدْخُلُ تَحْتَ الْعِضَاهِ، فَأُخْبِرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: ائْتُونِي بِهِ فَأُتِيَ بِهِ، فَقَالَ: أَلَسْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَفْطِرْ! فَأَفْطَرَ, ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَدَحٍ فَرَفَعَهُ عَلَى يَدَيْهِ فَشَرِبَ لِيَرَى النَّاسُ أَنَّهُ لَيْسَ بِصَائِمٍ].

وهو كذلك لا ينساق إلى الرهبانية، فليست الرهبانية من الدين فى شئ ...

خ م – عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أن عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ لما عزم على تَرْكِ النِّسَاءِ وعد الزواج بَعَثَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا عُثْمَانُ إِنِّي لَمْ أُومَرْ بِالرَّهْبَانِيَّةِ، أَرَغِبْتَ عَنْ سُنَّتِي؟ قَالَ لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: إِنَّ مِنْ سُنَّتِي أَنْ أُصَلِّيَ وَأَنَامَ وَأَصُومَ وَأَطْعَمَ وَأَنْكِحَ وَأُطَلِّقَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي. يَا عُثْمَانُ إِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا. قَالَ سَعْدٌ: فَوَاللَّهِ لَقَدْ كَانَ أَجْمَعَ رِجَالٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنْ هُوَ أَقَرَّ عُثْمَانَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ أَنْ نَخْتَصِيَ فَنَتَبَتَّلَ.

ومن وسطية الإسلام أن خير العمل فيه أدومه، وإن قل...

خ م – عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ فَقَالَ مَنْ هَذِهِ قَالَتْ فُلَانَةُ لَا تَنَامُ فَذَكَرَتْ مِنْ صَلَاتِهَا فَقَالَ مَهْ عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى تَمَلُّوا وَلَكِنَّ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ.

ثانياً: الإسراف في وجوه المعيشة:

المؤمن فى معيشته متوسط، وهذا من الفقه فى الدين ...

حم – عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: [مِنْ فِقْهِ الرَّجُلِ رِفْقُهُ فِي مَعِيشَتِهِ]

طس – عن ابن عمر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: [الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة، والتودد إلى الناس نصف العقل، وحسن السؤال نصف العلم].

حم – عن ابن مسعود أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: [ما عال من اقتصد]

هق – عن ابن عباس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: [ما عال مقتصد قط]

والمؤمن معتدل فى ملبسه ومأكله ...

ن جه حم – عَنْ عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: [كُلُوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا فِي غَيْرِ مَخِيلَةٍ وَلَا سَرَفٍ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُرَى نِعْمَتُهُ عَلَى عَبْدِهِ].

ت جه – عن الْمِقْدَامَ بْنَ مَعْدِ يكَرِبَ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: [مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ حَسْبُ الْآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ غَلَبَتْ الْآدَمِيَّ نَفْسُهُ فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ].

والمؤمن معتدل فى فرش بيته ...

خ م – عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ الْفُرُشَ في البيوت، فَقَالَ: [فِرَاشٌ لِلرَّجُلِ وَفِرَاشٌ لِامْرَأَتِهِ وَالثَّالِثُ لِلضَّيْفِ وَالرَّابِعُ لِلشَّيْطَانِ].

وإذا تصرف المؤمن فى ماله بغير التوسط فيجوز لإمام المسلمين إذا رُفِعَ إليه الأمر أن يرد ما أنفقه بسفه إلى الاعتدال والتوسط، حتى لا تضيع حقوق الآخرين ممن تلزمه نفقتهم ...

م ت ن جه حم – عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ رَجُلًا كَانَ لَهُ سِتَّةُ مَمْلُوكِينَ لَيْسَ لَهُ مَالٌ غَيْرُهُمْ فَأَعْتَقَهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِ فَجَزَّأَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْتَقَ اثْنَيْنِ وَأَرَقَّ أَرْبَعَةً.

ثالثاً: الإسراف في العواطف

وهو لا ينجرف فى عواطفه حباً وبغضاً، بل يتوسط ويعتدل فيهما ...

د – عن أبي الدَّرداءِ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [حبُّكَ الشَّيءَ يعْمِي وَيصِمُّ]

ت – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أُرَاهُ رَفَعَهُ قَالَ: [أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا].

وعلى بن أبى طالب يهلك فيه اثنان، واحد حبه بعنف والثانى أبغضه بعنف ...
حم – عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فِيكَ مَثَلٌ مِنْ عِيسَى، أَبْغَضَتْهُ الْيَهُودُ حَتَّى بَهَتُوا أُمَّهُ، وَأَحَبَّتْهُ النَّصَارَى حَتَّى أَنْزَلُوهُ بِالْمَنْزِلَةِ الَّتِي لَيْسَ بِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَهْلِكُ فِيَّ رَجُلَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يُقَرِّظُنِي بِمَا لَيْسَ فِيَّ، وَمُبْغِضٌ يَحْمِلُهُ شَنَآنِي عَلَى أَنْ يَبْهَتَنِي.

الخطبة الثانية

أسرف إن استطعت في الخلق الحسن...
مسند أحمد بن حنبل جزء ٢ صفحة ١٧٧ برقم ٦٦٤٨: عن عَبدَ اللّهِ بن عَمرٍو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [ان الْمسْلِمَ الْمسَدَّدَ لَيدْرِكُ درجه الصوَّامِ القَوَّامِ بآيَاتِ اللّهِ بِحسْنِ خلُقِهِ وكَرَمِ ضَريبَتِهِ].
فالضريبة الصفة والطبيعة والسجية والخليقة، وهذه ضريبته التي ضرب عليها و ضربها. وضُرب على شيء أي طُبع عليه، ومنه قوله تعالى ضرب الله مثلا أي وصف وبَيَّ، ومنه قولهم: خلق الناس على ضرائب شتى أي أخلاق شتى أو أوصاف شتى. راجع: لسان العرب ج١ ص٥٤٩

ولكن إياك أن تسرف في الشهوات حتى تضيع الصلوات...
تأمل قوله تعالى "فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا".
أعرف كثيراً من الآباء والأمهات يودون أن أولادهم لو صلو الفجر في وقتها، يودون فقط، بمعنى لو لم يؤدها أبناؤهم فلن يتغير شئ، لكن لو تأخر الابن "دقائق" فقط، نعم أنا صادق دقائق فقط عن موعد الذهاب لمدرسته فإن شوطاً من التوتر والانفعال يصيب رأس والديه.. وربما وجدت أنفاسهم الثائرة وهم واقفون على فراشه يصرخون فيه بكل ما أوتو من الألفاظ المؤثرة لينهض لمدرسته..
هل هناك عيب أن يهتم الناس بأرزاقهم؟ هل هناك عيب بأن يهتم الناس بحصول أبنائهم على شهادات يتوظفون على أساسها؟ أساس لا.. طبعاً، بل هذا شئ محمود، ومن العيب أن يبقى الإنسان عالة على غيره .. لكن هل يمكن أن يكون الدوام والشهادات أعظم في قلب الإنسان من الصلاة؟ لاحظ معي: أنا لا أتكلم الآن عن "صلاة الجماعة" والتي هناك خلاف في وجوبها (مع أن الراجح هو الوجوب قطعاً)، لا.. أنا أتكلم عن مسألة لاخلاف فيها عند أمة محمد طوال خمسة عشر قرناً، لايوجد عالم واحد من علماء المسلمين يجيز إخراج الصلاة عن وقتها، بل كل علماء المسلمين يعدون إخراج الصلاة عن وقتها من أعظم الكبائر..
أعد التأمل في حال ذينك الوالدين اللذين يلقون كلمة عابرة على ولدهم وقت صلاة الفجر "فلان قم صل الله يهديك" ويمضون لحال شأنهم، لكن حين يأتي وقت "المدرسة والدوام" تتحول العبارات إلى غضب مزمجر وقلق منفعل لو حصل وتأخر عن مدرسته ودوامه.. وبعضهم يعترف أنه منذ أكثر من عشر سنوات لم يصل الفجر إلا مع عند استيقاظه للذهب للعمل، يا ألله.. هل صارت المدرسة –التي هي طريق الشهادة– أعظم في قلوبنا

من عمود الإسلام؟! هل صار وقت الدوام –الذي سيؤثر على نظرة رئيسنا لنا– أعظم في نفوسنا من ركن يترتب عليه الخروج من الإسلام؟

هذه المقارنة الأليمة بين الساعة الخامسة والسابعة صباحاً هي أكثر صورة محرجة تكشف لنا كيف صارت الدنيا في نفوسنا أعظم من ديننا..

كلما تذكرت كارثة الساعة الخامسة والسابعة صباحاً، وأحسست بشغفنا بالدنيا وانهماكنا بها بما يفوق حرصنا على الله ورسوله والدار الآخرة؛ شعرت وكأن تالياً يتلوا علي من بعيد قوله تعالى في سورة التوبة: "**قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**".

ماذا بقي من شأن الدنيا لم تشمله هذه الآية العظيمة؟!

هل بلغنا هذه الحال التي تصفها هذه الآية؟! ألم تصبح الأموال التي نقترفها والتجارة التي نخشى كسادها أعظم في نفوسنا من الله ورسوله والدار الآخرة؟! كيف لم يعد يشوقنا وعد ربنا لنا في سورة النحل إذ يقول "مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ"؟ حين تتذكر شخير الساعة الخامسة صباحاً، في مقابل هدير السابعة صباحاً، فتذكر **قوله تعالى في سورة الأعلى "بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى"**.

قد يقولون العلم عبادة، والعمل عبادة، هل أصبحت الصلاة في ذيل قائمة العبادات؟ الصلاة عماد الدين.

الجامعات والمدارس تضع مواعيد الامتحانات دون النظر إلى ضياع أوقات الصلوات على الممتحنين.

بل وانظر إلى ماهو أعجب من ذلك.. فكثير من الناس الذي يخرج صلاة الفجر عن وقتها إذا تأخر في دوامه بما يؤثر على وضعه المادي يحصل له من الحسرة في قلبه بما يفوق مايجده من تأنيب الضمير إذا أخرج الصلاة عن وقتها.. إن المقارنة بين مشهدي الساعة الخامسة والسابعة صباحاً هي أهم مفتاح لمن يريد أن يعرف منزلة الدنيا في قلوبنا مقارنة بدين الله.. لا أتحدث عن إسبال ولا لحية ولاغناء (برغم أنها مسائل مهمة) أتحدث الآن عن رأس شعائر الإسلام.. إنها "الصلاة".. التي قبضت روح رسول الله وهو يوصي بها أمته ويكرر "الصلاة..الصلاة.." وكان ذلك آخر كلام رسول الله كما يقول الصحابي راوي الحديث، والصلاة التي عظمها الله في كتابه وذكرها في بضعة وتسعين موضعاً تصبح شيئاً هامشياً ثانوياً في الخطاب النهضوي والاصلاحي.. ألا لا أنجح الله نهضة وإصلاحاً تجعل الصلاة في ذيل الأولويات..

من أراد أن يعرف منزلة الدنيا في القلوب مقارنة بدين الله فليقارن بين الساعتين "الخامسة والسابعة صباحاً"، وسيفهم بالضبط كيف صارت الدنيا أعظم في نفوسنا من الله جل جلاله..

وتأمل أخي الكريم قوله تعالى "فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا".

عزيزي القارئ.. هل لازال هناك من يقول أن "مشكلتنا هي أننا عظمنا الدين وأهملنا الدنيا"، بمعنى أن "مشكلة المسلمين في دنياهم لا في دينهم".. أي دين أهم بعد الصلاة التي عمود الإسلام؟!

قارن بين سُبات الساعة الخامسة وهدير السابعة صباحاً وستعرف الحقيقة..

انتهى، ولله الحمد